رايت ميلز والخيال الاجتماعي Mills Wright and the Sociological Imagination:

تعريف لرايت ميلز: من مواليد أوت 1916 بمدينة واكو بتكساس بالولايات المتحدة الأمريكية، ويعتبر من أهم علماء الاجتماع الأمريكيين، ينحدر من أبوين من الطبقة المتوسطة ذوو أصول إنجليزية، إلتحق بكلية تكساس الزراعية والميكانيكية سنة 1934 1935 بعد إكماله الثانوية، بعد أربع سنوات إلتحق بجامعة تكساس بأوسين حيث تحصل على البكالوريوس والماجستير في علم الاجتماع معا سنة 1939.

بعدها ترشح للدكتوراه في جامعة ويسكونسن في ماديسون وحصل على الدكتوراه عام 1942، عمل أستاذا لعلم الاجتماع بجامعة كولومبيا، وبرز اهتمامه بدراسة الماركسية والتقليد الفيبري والحتمية الاقتصادية والقضايا ذات الصلة بالطبقة المثقفة، وبدورهم نحو الحياة الثقافية الحديثة وانتمى للاتجاه الإمبريقي، توفي في نيويورك سنة 1962. (أوزقزو عبد القادر، 2018، ص 121)

يعتبر ميلز الأب الروحي للاتجاه الراديكالي في علم الاجتماع المعاصر، فقد استوعب التراث الفلسفة الأوروبي والأمريكي خاصة الفلسفة البراجماتية النفعية، حيث كانت تعتبر أهم التيارات الفلسفية في الولايات المتحدة آنذاك، واعتباره أهم مؤسسي النزعة الراديكالية في علم الاجتماع المعاصر ليس فقط بسبب نقده للتراث السوسيولوجي التقليدي بل بسبب تبنيه لوجهة نظر راديكالية ملتزمة.

ظهر ميلز من الحركات اليسارية الجديدة التي ظهرت في الكثير من البلدان خاصة الولايات المتحدة الأمريكية تمثلت بحركات الشباب والطلبة 1928، لذا يعتبر رمز المعارضة الراديكالية لكل الممارسات السوسيولوجية التي ظهرت خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وبهدا أصبح جزءا من تاريخ الفكر الاجتماعي الغربي، حيث شكل نقطة فاصلة في مسار الفكر الاجتماعي الذي ظل أسيرا لنزعة محافظة إعتذارية تسعى للدفاع عن الأوضاع القائمة ومعارضة أي تغيرات بنائية شاملة.

كان محور اهتمام ميلز هو استخدام السلطة وإساءة استخدامها حيث كان يرى أن الولايات المتحدة تحكمها نخبة صاحبة قوة وسلطة، يهتم فيها قادة النقابات العمالية في جمع الثروة. (حسام الدين فياض، 2011، ص3)

مؤلفات رايت ميلز:

- الشخصية والبناء الاجتماعي character and social structure في 1953.
- الخيال الاجتماعي Th sociological Iimagination في 1959.
- الياقات البيضاء White collar في 1951.
- صفوة القوة The power élite في 1956.
- أسباب الحرب العالمية الثالثة The cause of world war 3 في 1958.
- الماركسي The marxit في 1962.
- اللغة والمنطق والثقافة في 1939.
- في 1948.The new men of power American's labor leaders
- في 1960: Listen yankee: The cuban case against the united States
- في 1963 Power politics and people

(أوزقزو عبد القادر، 2018، ص 122)

عوامل التكوين النقدي لميلز: أهم الروافد الفكرية التي كونت الإطار النقدي لميلز ما يلي:

التراث الفلسفي للبراجماتية: حيث اهتم بها في رسالته للدكتوراه التي كانت بعنوان علم الاجتماع والبراغماتية، وهذا لا يعني أنه اتخذها مدخلا للعلم بل يعني أنه استوعبت التراث الفلسفي الأمريكي، مما جعله يرفض النزعة الأمريكية الإحصائية السائدة بين زملائه وإدراكه لتعقد العلاقة بين الفاعل الفردي والبناء الاجتماعي، وأن استيعابه للتراث البراجماتي جعله قادرا على تمثيل الفكر الأوروبي في التاريخ والعلوم الاجتماعية عندما اتصل به بعد ذلك.

الدراسات الإمبريقية: عن الحراك الاجتماعي والاتصال الجماهيري حيث قام ميلز بدراسة النقابات التجارية وصفوة رجال الأعمال وجماعات تنتمي للطبقة الوسطى ودراسات عن الاتصال الجماهيري وقادة الرأي، وقد أجرى كل هذه الدراسات حيث كان يعمل مع بول لازسيفيلد منذ 1945، وتأثر بهذا الأخير كثيرا ودراسة صفوة القوة ودراسات عن ذوي الباقات البيضاء، مما يدل على اهتمام مبكر في حياته بالبناء الاجتماعي الأمريكي، وأنه فقهه بطريقة واقعية أثرت على إخراج دراساته فيما بعد وعلى قدرته في كشف القوة القادرة على تغيير المجتمع أو تثبيته.

الحرب الباردة: معايشة ميلز الحرب الباردة والنزاع الإيديولوجي بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي جعل أغلب المسائل التي عالجها تذكر الحرب

والسلام، حيث كان يعتبر أن الحرب تسبب الكثير من الاضطرابات الشخصية واصدر كتابا بعنوان أسباب الحرب العالمية الثالثة سنة 1958، الذي قال فيه أن من أسباب قيام حرب عالمية ثالثة هي تركز القوة في المجتمع الأمريكي في يد جماعة صغيرة لا يمارس الشعب عليها الرقابة، وهذا ما له علاقة في كتب ميلز الأخرى التي عالج فيها مسالة تركز القوة في المجتمع الرأسمالي. (أحمد زايد 2006، ص 223، 225)

الاتجاهات النقدية لبعض علماء الاجتماع الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة الأمريكية إبان الحكم النازي: قبل أن يبدأ ميلز بدراسته قابل بعض العلماء الألمان الفارين من بطش الحكم النازي، وقد كانوا في الاتجاه الراديكالي النقدي لتغيير النازية ويرون أن علم الاجتماع قادر على هذه المهمة، وقد أثار هؤلاء اللاجئون في ميلز الاهتمام الراديكالي، خاصة أنهم وجهوا بعضا من رؤيتهم الراديكالية إلى المجتمع الأمريكي.

كما أولى ميلز اهتماما كبيرا بالصفوة العسكرية وما تلعبه في السيطرة في المجتمع الأمريكي مع الصفوات الأخرى، وهذا ما يبين مدى تأثر ميلز بجماعة المهاجرين. (حسام الدين فياض، 2011، ص 8)

مدرسة فرانكفورت: تعتبر من أقوى الجذور الفكرية ليست فقط لميلز بل أيضا باعتبارها النظرية النقدية التقليدية التي لا يزال آخر روادها هبرماس يسهم بأفكاره العلمية، ولا سيما أن العلماء الألمان حللوا المجتمع الأمريكي بصوره نقدية متميزة ورأوا فيه تحولا نحو الشمولية والفاشية الغربية.

الجو الأكاديمي: إن ظروف العصر والمهنة والمجتمع تصقل آراء الباحثين والعلماء والتي تعكس أبحاثهم وأديولوجياتهم ودراساتهم وأفكارهم وهذا ما حدث مع ميلز، حيث حرص أن يجعل اتجاهه النقدي النظري مصقولا بنتائج الدراسات الإمبريقية في معالجته لطبيعة الحياة في المجتمع الأمريكي، مما جعله يتبنى الاتجاه النقدي بعيدا عن النزعات والنظريات السوسيولوجية المحافظة، خاصة النظرية الوظيفية التي انتقدها في أوج شهرتها خلال الخمسينيات والستينيات في القرن العشرين. (عبد الله محمد عبد الرحمن، 2006، ص 288، 289)

أهم أفكار ميلز:

إختلف الكثير ممن اهتم بتحليل أعمال ميلز وتصنيفها حول التوجه الإيديولوجي والمعرفي الذي استند إليه، فاعتبره ارفنج هورفيتز براجمتيا أما جولدنار فعده رومانسيا وأطلق عليه آخرون ترتكسي تكساس نتيجة صلته بالفكر الاشتراكي، ورغم أهمية ميلز وشهرته إلا أن العرب أخذوا منه نقلا أكثر مما كتبوا عنه تحليلا ونقدا، ويمكن إيجاز أهم أفكار ميلز فيما يلي:

- ينظر لعلم الاجتماع نظرة براجماتية فالأفكار والنظريات تحدد قيمتها بما يمكن تطبيقه في الواقع منها، وكان يحلل العمليات والعلاقات الإنسانية ويقدم حلولا للمشكلات الخطيرة التي يتعرض لها البناء الاجتماعي للمجتمع الأمريكي.

- دعا إلى ضرورة تبني النظرة الشاملة في الدراسة السوسيولوجية حيث يركز الباحث على ثلاث مستويات هي الإنسان والمجتمع والتاريخ، فالمشكلات الأساسية التي يعانيها الناس هي نتيجة مشكلات البناء الاجتماعي العام وهما مرتبطان بمشكلات التاريخ.

- يرجع ميلز أزمة علم الاجتماع الغربي إلى التصورات الخاطئة عن العلم، حيث يرى أن مفهوم السوسيولوجي لابد أن يكون فكرة ذات مضمون إمبريقي، فإن كان المضمون أكبر من الفكرة تردى علم الاجتماع وسقط في التيار الامبريقي التجزيئي، وإذا كانت الفكرة أوسع وقع علم الاجتماع في شرك عالم المجردات في النظريات الكبرى، ثم يواصل نقده التفصيلي لكلتا النزعتين.

- عاب ميلز على أغلب المشتغلين بعلم الاجتماع في الولايات المتحدة موقفهم المسبق من الماركسية، حيث كان يرى أنه يوجد فرق بين أن تفهم لتقاوم وبين أن ترفض وتقاوم دون وعي وفهم، ولهذا ألف كتابا أسماه الماركسيون، عرض فيه خصائص الفكر الماركسي وبعض المحاولات الإبداعية فيه.

وأوضح أن من يرفض الماركسية يرفض الخصائص المميزة لعلم الاجتماع، فقد اهتم ماركس بالبناء الاجتماعي للمجتمع بشموليته وديناميته وهو اهتمام محوري لعلم الاجتماع، ورفضهم له يعني رفض جوهر علم الاجتماع. كما أن ماركس عرف أهمية التاريخ واستعمله بتفوق وتألق والمنهج التاريخي ضروري لعلم الاجتماع ويقول ميلز أنه ليس ثمة علم اجتماع إلا وكان ماركسيا بالضرورة وإن لم يكن العمل كذلك خرج عن نطاق علم الاجتماع.

- في محاولته الربط بين نقد المجتمع الأمريكي ونقد علم الاجتماع فيه وضح ميلز قضية اغتراب الإنسان الأمريكي وتزييف وعيه وطبعه باللامبالاة فيما يخص التغيير، وربط ذلك بأنها ليست مشكلة اجتماعية بنائية بل نفسية. وليثبت هذا أنجز

العديد من الدراسات حول الطبقات الاجتماعية منها الدقة المتوسطة وصفوة القوة، ليخلص أن حقيقة أي طبقة هي محصل لعلاقاتها بسائر الطبقات الاجتماعية، وأن مراكز القوة الاقتصادية في المجتمع الأمريكي هي التي تسيطر عليها جماعة صغيرة هي أصحاب الشركات الكبرى والصفوة العسكرية.

- في إطار تصحيحه لمسارات علم الاجتماع طالب بضرورة تسلح الباحث بما أسماه الخيال السوسيولوجي، حتى يدرك أن الفرد جزء من البناء الاجتماعي والبناء الاجتماعي جزء من التاريخ، وبالتالي إدراك المشكلات الاجتماعية وأنه سياق بنائي ليس فردي. (عبد الباسط عبد المعطي 1981 ص 151، 154)

الخيال السوسيولوجي عند ميلز(المشروع الأخلاقي): بالرغم من أن ميلز لم يتحدث عن الخيال السوسيولوجي إلا في كتابه قبل الأخير عام 1959 إلا أن الحديث عن ميلز لا يمكن إلا بالانطلاق من فكرة الخيال السوسيولوجي، ذلك أنها تعتبر الإطار النظري والمنهجي التي وجهت كل دراساته السابقة. (أحمد زايد، 2006، ص 226)

تتمثل أهمية إسهامات ميلز في النظرية النقدية المعاصرة أنها حاولت تقييم النظريات السوسيولوجية الكبرى المسيطرة على الفكر السوسيولوجي، كما جاءت تصوراته النقدية بمعية البدائل النظرية والأطر البحثية والمنهجية التحليلية لتجدد وتحدث علم الاجتماع وعلمائه، وهذا ما أشار إليه ميلز فيما أطلق عليه بالمشروع الأخلاقي لعلم الاجتماعي، متمثلا في الخيال السوسيولوجي الذي من خلاله يمكن الخروج من الأزمة التي تواجه علم الاجتماع والباحثين الاجتماعيين.

لقد حاول ميلز عن طريق الخيال السوسيولوجي أن يقيم النظرية السوسيولوجية الكبرى سواء كانت وظيفية أو كلاسيكية ومن ثم يعتبر أداة منهجية وتحليلية لدراسة الفكر السوسيولوجي محاولة إعادة بنائه من جديد على أسس من البدائل الواقعية التي يمكن أن تفهم الظواهر والمشكلات والبناءات الاجتماعية وعلاقتها بالفرد والإنسان الحديث.

كما يرى ميلز أن الخيال السوسيولوجي يقود الباحث بعيدا عن الاتجاهات الإيديولوجية المرتبطة بالدولة والسلطة السياسية، وتساعده في الالتزام بالأهداف والقدرة على النقد، إضافة إلى ذلك يرى ميلز أن فكرة الخيال السوسيولوجي تساهم في الربط بين مستويين رئيسيين من مستويات التحليل السوسيولوجي، الأول هو مستوى المجتمع أو البناء الاجتماعي والثاني هو مستوى الفرد كما تساعد على فهم العلاقة المتبادلة بين الإنسان والمجتمع ككل، وتاريخ الإنسان وتاريخ المجتمع وتفسير البيئة الخارجية.

أيضا سعى ميلز ليوضح أن الخيال السوسيولوجي يحتاج إلى مهارات عقلية لا يحتاج أن يتمتع بها الباحث الاجتماعي فقط بل أيضا فئات مهنية أخرى كالصحفيون والفنانون والدارسون للنظام علاوة على عامة الناس لفهم واقعهم المعاش.

ومن منطلق سوسيوسيكولوجي أبرز ميلز فكرة الخيار السوسيولوجي للفرد وأهميتها في إدراكه لمكونات الاتجاه الداخلية والخارجية المحيطة به، حيث يفهم الوعي الزائف المرتبط بالأوضاع العامة للحياة الحديثة، كما أنها تبعد مظاهر القلق الشخصي واللامبالاة وبالتالي يقلل حصيلة المشكلات في البناء الاجتماعي.

يمكن القول أنه عن طريق الخيال السوسيولوجي يمكن فهم المشكلات العامة والخاصة خاصة مشكلة الاغتراب واللاوعي، وحاول ميلز من خلاله مناقشة عدة قضايا متمثلة في النظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والبيروقراطية ونظم الليبرالية والديمقراطية وبناءات الشخصية في المجتمع الإيديولوجي الرأسمالي أو الماركسي الشيوعي، علاوة على مناقشته للدور الوظيفي والمهني للباحث الاجتماعي وكيفية استقلاله عن السلطة السياسية.(عبد الله محمد عبد الرحمن، 2006، ص 255، 292)